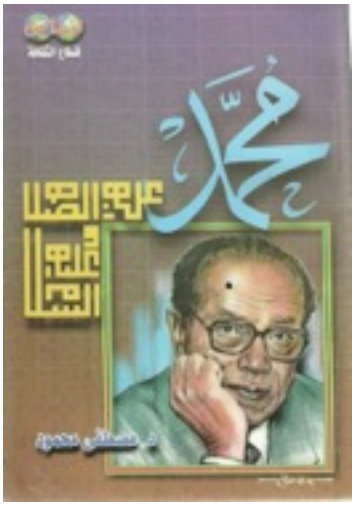

كنوز

مكتبة اليقظة العربية

الكتاب: محمد صلى الله عليه وسلم

الكاتب: مصطفى محمود

تاريخ النشر: 2001

الناشر: دار أخبار اليوم- قطاع الثقافة

هذا كتاب آخر نختاره من سلسلة الكتب التي تتناول سيرة الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم . والكتب التي اخترناها ثلاثة هي عبقرية محمد من تأليف عباس محمود العقاد وقد قدمناه مؤخرا ، ثم هذا الكتاب الذي نقدمه اليوم من تأليف مصطفى محمود ، وسيكون الكتاب الثالث – إن شاء الله – حياة محمد من تأليف محمد حسين هيكل . ولم يكن اختيار الكتب الثلاثة عشوائياً بل لأن كل منها يتناول سيرة الرسول الكريم من منظور مختلف.

... زكريا

في هذا العصر ظهر لون جديد من كتب السيرة يحاول فيه الكاتب أن يجرد محمدا عليه الصلاة والسلام من كل ما هو سماوي غيبي ، ويتصوره في غار حراء وقد اختلى بنفسه لا ليناجي ربه وإنما ليتأمل أحوال البروليتاريا في قريش ، ويفكر كيف يستنقذهم من مظالم السادة بشريعة جديدة ، وقد جعل من النبي العظيم شيئاً كجيفارا ، ومن الإسلام شيئاً كثورة اجتماعية ، وظن بهذا أنه كان علمياً في استقصاء حياة محمد .. وأنه باستبعاده حكاية جبريل ونزول القرآن إملاء من عند الله ، وإسراء النبي إلى المسجد الأقصى وعروجه إلى السموات العلا.

ظن بهذا أنه خدم العقيدة ، ورفع من شأن رسولها .. وأنه كان يتكلم لغة العصر، ويخاطب الكافر بلغته .. والحقيقة أنه لم يكن يخاطب الكافر بلغته ، بل كان يصانعه ويداهنه ويتألفه بالكذب والتزييف ، وينزل بنبيه إلى درك السياسيين المغامرين ، ويجرده من العصمة والقداسة

وحجته في ذلك ما قال الله لمحمد في القرآن:

(قل إنما أنا بشر مثلكم)

وليته أكمل الآية:

(قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي ... 110) (الكهف)

فهذه التتمة تنفي المثلية التي تصورها كاتب السيرة ، فمحمد بشر مثلنا وليس بشراً مثلنا .. لأنه يوحى إليه ونحن لا يوحى إلينا بشيء .. وإنما نحن أصحاب اجتهاد على الأكثر .. أقصى ما نحلم به هو انقداح الفكر وفيض الخاطر.

وهذا الفرق الدقيق هو سر النبوة.

إن النبي مثلنا وليس مثلنا.

هو في حضرة الملأ الأعلى والملكوت يرى جبريل رؤية عين ، ويسمع منه ، ونحن في الحضرة الأرضية ، وفي الحضيض البشري محجوبون لا حظ لنا في هذه المرائى العالية

هو برزخ بين الشهادة والغيب

ونحن على شاطيء الشهادة والمحسوس لا نكاد نطل على البر الآخر إلا في الحلم أو شطحة أو كرامة

وهذا هو الفرق بين النبي والولي والمصلح الاجتماعي

النبي جليس على المائدة الربانية يتلقى من ربه الكلمة والتشريع والتكليف .. وهو معصوم لا ينطق عن الهوى

والولى كل حظه لحظة شفافية وإطلالة خاطفة من باب موارب ما يلبث أن يعود فينغلق ، وليس له عصمة ولا تكليف ولا تبليغ.

والمصلح الاجتماعي من أهل الاجتهاد مثله مثلنا ، وحظه حظنا ، يخطىء ويصيب ، ولا عصمة له ، ولا خروج من دائرة المحسوس ، ولا تحليق إلا بالخيال والحدس والتخمين

وأي فرق هائل بين هذه المراتب ؟ .. تكاد كل مرتبة تكون في فلك.

وأي سقوط بالنبوة إذا نحن جردناها من هذه الصلة الربانية ؟

وماذا يبقى من الدين إذا جردناه من الغيب ؟

إنه تكذيب بعينه وقد أخذ صورة العبارة العلمية الملفوفة .. ألم يصف الله المؤمنين بأنهم: (الذين يؤمنون بالغيب .. 3) (البقرة)

فجعل شرط الإيمان هو الاعتقاد بالغيب

(ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً 136) (النساء)

فالإيمان بالملائكة شرط صريح للإيمان بالله

ولكنها مادية العصر قد تسللت إلى كل شيء حتى إلى فهمنا للنبوة.

وأصبح الكاتب العصري يتصور أنه يكون أذكى وأفطن إذا تكلم عن محمد عليه الصلاة والسلام كما يتكلم عن أبراهام لنكولن ، فهذا هو الفهم العلمي للأمر.

وما هو بالفهم العلمي ولا الموضوعي

.....

وإذا كانت هناك معجزة في الموضوع .. فإنها لم تكن شق البحر أو إحياء ميت أو شفاء أبرص أو إخراج حية من العصا

وإنما كانت المعجزة هذ ذات محمد نفسه التي جمعت الكمالات وبلغت في كل كمال ذروته.

كان محمد ذاته كسلوك وخلق وسيرة هو المعجزة التي تسعى على الأرض

تبلغ ذاتك الكمال في صفة واحدة ، فتبرز فيها وتتفوق على أقرانك ، فهذه هي العبقرية .

.....

وهذا محمد النبي وقد اجتمعت فيه كمالات بلغ في كل منها الذروة ، فهو العابد المبتهل الذي يذوب خشوعاً ويفنى حباً ، وهو المقاتل الصنديد الذي يتعرض لجحافل الموت ثابت القدم وألوف الأبطال والفرسان يفرون أمامه كالجرذان ، وهو المخطط العبقري الذي يرسم الخطط فيتفوق على أهل الحرفة ، وهو السياسي الحاذق الذي يحرك المجاميع ويمسك بمقاليد المشاعر بمهارة المايسترو المبدع ، وهو المحدث الذي ينطق بجوامع الكلم ، وهو الأب والزوج والصديق ، وهو صاحب الدعوة الذي يقيم نظاماً وينشىء دولة من عدم (من قبائل وشراذم متفرقة لا تعرف إلا قطع الطريق والثأر والتفاخر بالأحساب والأنساب) ، وهو برزخ الأسرار المكاشف بالملكوت الذي يستمع إلى الله وملائكته كما نستمع نحن بعضنا إلى بعض بالغاً بذلك القمة في علوم الظاهر وعلوم الباطن معاً وفي الوقت نفسه .. وهو الكريم الحليم الودود الرؤف الصبور الباش البسام اللطيف المعشر ، لا تمنعه الأعباء الجسام من ملاطفة الطفل والوليد فيحمله على كتفه راكعاً وساجداً وقائماً ، ولا من مغازلة زوجه في حنان وكأنه يستمد من بحر.. .. لا ينضب له معين

هذه الذات هي المعجزة

واجتماع هذه الكمالات في ذات واحدة معجزة وليست عبقرية .. فالعبقرية هي أن تتفوق في صفة واحدة وحسب .. أما أن تكون ذواتنا مجمع كمالات فهنا نبوة .. هنا أمر لا يمكن أن يكون إلا بمدد إلهي وعصمة وتوفيق وتمكين وإفاضة ممن عندة كنوز كل شيء.

وهذا برهاني على نبوة محمد.

إننا أمام ذات متفردة تماماً ، مستوفية أسباب الكمال ، جامعة لأقصى الأطراف في كل شيء ، فاعلة منفعلة ، نشيطة مؤثرة ، تصنع بطلاً من كل رجل تلمسه ، وكأنما لها أثر السحر في كل ما حولها ثم فيمن بعدها .. ثم في التاريخ بطول أربعة عشر قرناً .. ثم فيما يستجد بعد ذلك من مستقبل إلى أخر الزمان.

نحن لسنا إذن أمام أبراهام لنكولن ، ولا أمام جيفارا كما تصور أصحابنا قصار النظر دعاة المادية الجدلية ودعاة العلمية بلا علمية

نحن لسنا أمام مصلح اجتماعي .. ولا أمام ثورة إسبارتاكوس الاجتماعية

لا .. لقد هزلت تلك التشبيهات

بل ظلموا أنفسهم وظلموا نبيهم .. ونقصوه وما قدروه .. بل نحن أمام ذات .. تسبح وتقدس من أنشأها في الأزل وبعثها للأبد رحمة للعالمين وصلى عليها في عليائه ، تمجد وتبارك في آياته:

(إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً 56) (الأحزاب)

صلوات الله عليك يا محمد...

يا رحمة لنا إلى أخر الدهر

مدير المكتبة

زكريا أحمد عيد

المستشار الثقافي والتربوي